بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

للطبعة الأولى

الأحداث يذكر بعضها ببعض ، حينما يكون بينها روابط ، لا سيّما إذا كانت قوية بعيدة الأثر في حياة الناس ...

فلا غرو إذن أن يذكر الغزو الصهيوني الحديث لفلسطين وما جاورها من أرض العرب ، بالغزو الصليبي للمنطقة نفسها في المشرق الإسلامي ، لا سيّما أنّ كلا الغزوين ذو طابع استيطاني ، وأنهما كليهما وفدا من الغرب ، واستمدا أسباب قوتهما ومقومات بقائهما منه ، فضلاً عن تشابه عجيب في كثير من الوقائع والملابسات التي اكتنفت الغزوين .

ولئن كان من الآثار التي نشأت عن الغزو الصهيوني للمنطقة أن ظهر في أدبنا الحديث شعر ونثر في مقاومة الغزاة ، فقد كان من الآثار التي نشأت عن الغزو الصليبي كذلك ، أن ظهر عند أسلافنا أدب يقاوم الغزو ، لا سيّما في ميدان الشعر ، ذلك النمط من أدب العرب ، الذي ارتبط بحروبهم وبالأحداث الكبار التي مرّت بهم ، منذ أيام جاهليتهم وإلى يومنا هذا ...

وثمة ظاهرة تسترعي النظر بالنسبة إلى شعرنا المرتبط بالحروب الصليبية : تلك هي عدم شيوع هذا الشعر على ألسنة الناس،على الرغم من الحوادث الكبار

المرتبطة به ، مع أنّ أنماطاً أخرى من الشعر العربي ، لا ترتبط بما ارتبط به ذلك الشعر من أمور جليلة في حياة الأمة ، قد اشتهرت وذاعت ، وتغنّى الناس بها جيلاً بعد جيل ، في حين أن الكثيرين من مثقفينا لم تألف أسماعهم حتى أسماء شعرائنا إبان الحروب الصليبية ، أو أسماء عدد كبير منهم على أقل تقدير...

ويتساءل المرء عن سر هذا الاغفال العجيب لأدب فترة حافلة من فترات تاريخنا ، فلا يكاد يجد جواباً شافياً . هل هو أثر من آثار التقسيم الكلاسيكي للعصور الأدبية في تاريخ العرب الأدبي ، وهو تقسيم كان لا يقيم وزناً كبيراً لهذه الفترة من حيث قيمتها الأدبية ، ويحشرها في حيّز التقليد والجمود والانحطاط ... ؟ ربّما ... ولكن فكرة الجمود تغدو مستحيلة ، ومناقضة لطبائع الأشياء ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حالة الغليان التي كانت عليها الأمة في تلك الفترة . والتحدّيات الخطيرة التي واجهتها خلالها ...

وفي هذا البحث المتواضع الذي أقدّمه ، آمل أن ألقي أضواء كاشفة ، ولو على زاوية من زوايا الانتاج الأدبي في فترة الحروب الصليبية ، لعلّ هذه الأضواء تكشف عن حال غير حال الجمود والانحطاط اللذين وسم بهما الأدب في هذه الفترة .

أمّا هذه الزاوية ، فهي نمط من الشعر ، يرتبط ارتباطاً مباشراً بالوجود الصليبي في أرض الشام ، وصاحبه شاعر من فلسطين ، ولد في عكا ، ونشأ في قيسارية فنسب إليها ، ثمّ شرّده الصليبيون من بلده ، فالتجأ إلى دمشق ثم إلى حلب ، منتظراً عودة الساحل الفلسطيني إلى أهله ، بينما كان يسخّر فنّه الشعري في مقاومة الغزاة والتحريض عليهم ، إلى أن قضى قبل أن يصل قومه إلى الغاية ، ولكنّ تباشير النصر والعودة كانت قد أخذت تلوح له ولقومه قبل أن تنتهي به رحلة العمر إلى النهاية المحتومة .

وقد كانت هذه الدراسة في البداية ترمي إلى تناول « ابن القيسراني »

وشعره وعصره من مختلف النواحي ، وكان كاتب هذه السطور قد قطع بالفعل شوطاً بعيداً في هذا السبيل . إلا أنّ نبأ وجود دراسة من هذا النوع ، ممثلة في رسالة « ماجستير » قدمت إلى الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٦١ أخذني على غير توقّع ، لأن الرسالة المذكورة لم تكن مطبوعة ، وبالتالي لم تكن معروفة . ومن ثمّ ، سارعت إلى صاحبها السيد فاروق جرّار ، أستقرىء نبأ الرسالة وفحواها . وقد كان الرجل كريماً حين وضع بين يدي رسالته المطبوعة على الآلة الكاتبة ، مع كل ما توافر لديه من مواد تتعلق بها ، مما أتاح لي أن أتمثل مجهوده الطيّب كاملاً . وحين تبيّنت بعد مطالعة « الرسالة » أن جزءاً لا يستهان به من المادة التي أعددتها عن هذا الشاعر ، قد أصبح شكلاً من أشكال الازدواج غير المقصود أصلاً ، رأيت أن أعالج الموضوع معالجة جديدة من زاوية معيّنة لها قيمتها الأدبية والتاريخية الخاصة ، بغية القاء أضواء قويّة على هذه الزاوية ، وابرازها بما تستحق من وضوح وجلاء .

من هنا كان موضوع هذه الدراسة ، تركيزاً على شعر ابن القيسراني المتأثر بالغزو الصليبي ، وبما نشأ عن هذا الغزو من أحداث « واحتكاكات » وملابسات . ومن ثمّ أصبح عنوان البحث : « صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني » . ولعلّ دراسة هذا الصدى من الأمور التي تهمّ الباحثين في الأدب والتاريخ والاجتماع في آن واحد ، لا سيّما أن الحروب الصليبية الأولى ، كانت تمثّل أول لقاء على مثل هذا النطاق الواسع الشامل ، ما بين الأوروبيين وأبناء المشرق الإسلامي على أرض المشرق .

وقد يقال : أو لم يكن ثمّة مندوحة عن ابن القيسراني ، ما دام دارس آخر قد تناوله بالبحث ؟ والجواب عن ذلك ، فوق ما ذكر من تغيير وجهة البحث إلى اتجاه جديد ، أنّ ما اجتمع في هذا الشاعر وله ، وما أحاط بحياته من ظروف تفرّد بها دون غيره ، مما سنفصّله فيما نستقبل من صفحات

هذا البحث ، قد جعل من شعره مادّة صالحة أكثر من غيرها لما نبتغي من من دراسة ، فضلاً عن أن الباحثين في أي موضوع ، يجدون دائماً مجالاً لجديد فيما يبحثون ، إذا ما طبعت أبحاثهم بطابع البحث العلمي الجادّ. وهو ما نأمل أن ينطبع به هذا البحث المتواضع .

والله تعالى أسأل ، أن يأخذ بيدي نحو الحقيقة ، فهو جلّ وعلا مصدر كل حق وصدق .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

للطبعة الثانية

انقضت ست عشرة سنة على صدور كتابي «صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني» عندما طبع لأول مرّة عام ١٣٩١هـ، الموافق لعام ١٩٧١م، بعد أن كنت قد فرغت من إعداد مادته يوم الجمعة في ١٥ رمضان المبارك عام ١٣٩٠هـ الموافق ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٠م. وما من شكٍ في أنّ فترة كهذه لا بدّ أن شهدت أحداثاً، وجرت فيها تغيّرات مسّت حياة الناس في مختلف وجوهها، ولاسيّما في هذا الجزء من العالم العربيّ الإسلاميّ الذي لم يعرف الاستقرار منذ أن أقيمت فيه دولة غريبة عن دول المنطقة في كل شيء: في آمالها وتطلّعاتها ومطامحها، وفي تراثها الفكري وتاريخ من ينضوون تحت لوائها ممّن جُمّعوا من كل ركنٍ من أركان العالم؛ فضلاً عن اختلافها عن أبناء المنطقة عقيدةً ولغةً وطريقَة حياة...

أذكر ذلك، لأن مادة كتابي عن ابن القيسراني، مرتبطة بلونٍ من الأدب نشأ عن وجودٍ غريبٍ في المنطقة نفسها، وفي ظلّ ظروف تحتوي مشابه كثيرة من الظروف الحاضرة، حتى لو اختلفت الأسماء وموازين القوى العالميّة، وما يرفع من شعارات، وما يبرر به العدوان على أراضي الآخرين بوسائل من أدوات الإعلام والإبهام، هي وليدة عصرنا هذا دون غيره. وإذا كنّا في دراستنا لحقبة الحروب الصليبيّة لا نكاد نعلم إلّا النزر اليسير من الأدب المعادي الذي كُتب بلغاتٍ مختلفة في تلك الأيام السالفة، فإنّ تغيّر الأحوال ومراكز القوى ووسائل الإعلام والتأثير، في زمننا هذا قد أطلعنا، بإرادتنا أو بغير إرادتنا على سيلٍ دافق من الأدب المذكور، سواء منه ما نشر في كتاب أو دوريّة أو صحيفة، أو ما بثّ من أداة من هذه الأدوات الحديثة للإعلام التي تقتحم على الناس بيوتهم سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوا.

ومن الأمور المسلَّم بها، أنّ في حياة الناس ثوابت لا تتغيّر، لأنها مرتبطة بالنواميس الكونيّة وبطبائع الأشياء، وأن فيها ما هو متغيّر أبداً تبعاً لتغيرات الظروف والأحوال التي يعيش في ظلّها. وفي نطاق ما نحن بصدده من مادّة هذا الكتاب الذي يطبع للمرّة الثانية، نجد أنّ العنصر الثابت، هو أن يتصدّى قلم الأديب لمقاومة الغزو والعدوان، إذ إنّ مثل هذا التصدّي هو ردّة فعلٍ طبيعيّة من الجانب المُعْتدىً عليه، لأنّ مقاومة العدوان بالكلمة قد رافقت مقاومته بالسلاح، منذ أن وُجدت في هذه الدنيا حروب، ومنذ أن أصبح الإنسان قادراً على أن يقول الكلمة البليغة المثيرة المؤثرة، يشحن بها النفوس، ويستثير الهمم، ويقوّي بها سواعد الذين يحملون السلاح، وليهوّن عليهم مواجهة الموت في صراعهم مع أعداء مَولهم وأمتهم.

أمّا العنصر المتغيّر في هذا النّطاق نفسه، فهو الأسلوب المتبّع في صناعة الكلمة، والأدوات التي تنطلق الكلمة من خلالها، والمرتكزات، أو بعض من المرتكزات، التي تتكّىء عليها الكلمة البليغة المثيرة. فإذا كانت المادة الشعريّة قد احتلّت في الأزمنة الماضية لأسباب لا تخفى المرتبة الأولى في الصراع الإعلاميّ مع الأعداء، وإذا كانت هذه المادّة قد نقلت إذ ذاك مشافهةً أو مكتوبة بخط يد قائلها أو ناسخها، وإذا كانت الركيزة الفكريّة الأولى التي بنيت عليها تلك المادة هي عقيدة الإسلام وتراثه وتاريخه، فإنّ مادة الإعلام، في زمننا هذا قد وجدت مسارب أدبيّة مختلفة تبرز من خلالها، كأنْ تكون في شكل قصيدة شاعر، أو قصّة قصّاص، أو مسرحيّة كاتب، أو مقالة صحفي، أو كتاب مؤلف، أو حديثاً يبث أو يسجّل في أدوات مختلفة من أدوات البث المسموع أو المبصر والمسموع في آن معاً. أما الركيزة الفكريّة للمادة الإعلامية الحديثة، فإنها قد اتخذت في زمننا هذا أشكالاً مختلفة، لم يُغفلْ فيها ما ارتبط بعقيدة الإسلام وتراثه وتاريخه، ولكن دخل فيها عناصر أخرى، من مثل القوميَّة والارتباط بالأرض والمذاهب الاجتماعية المختلفة المعاصرة، وهي كلها كانت تعتبر فيما مضى أجزاءً مكوّنةً في مجموعها لعقيدة الإسلام وتراثه وتاريخه.

وثمّة جانب لا ينبغي أن يُغفل عند الحديث عن شعر شاعر توفي منذ قرابة ثمانمائة وستين عاماً، ذلك هو الجانب الفنيّ الأدبيّ في هذا الشعر، وهو جانب لا يطمسه، أو ينبغي ألّا يطمسه كرّ السنين والأيام. وما كان الزمن في يوم من الأيّام عامل إغفال للأعمال الفنيّة التي أنجزت في أيّا ركن من أركان العالم، سواء اتخذت هذه الأعمال شكل نصٍ أدبي أداته الكلمة، أو شكل صورة فنيّة أداتها الفرشاة والأصباغ، أو شكل تمثال منحوُت أداته الإزميل والرخام أو الحجر، أو شكل لحن موسيقيّ مادّته النغم.

ولذا فإننا ونحن ندّرس شعر ابن القيسراني، تدرس فيه إضافةً إلى مادته وفحواه ووظيفته، الجانب الفنيّ الذي هو عنصر أساسي في دراسة الشعر، حتى ولو كان الشعر المدروس، مما لا تتقبّله نفوسنا من حيث أغراضه وما يرمي إليه، كبعضٍ من شعر أبي نواس مثلا، وكالكثير من شعر الجاهليين كذلك.

وإذا كانت الاتجاهات الفنيّة في النصوص الأدبيّة تتأثر بتراث الماضي ومواضعات العصر وثقافة الأديب وبيئته العامّة والخاصّة، فإن دراسة متأنيّة لشعر ابن القيسراني من داخل هذا الشعر، من شأنها أن تقفنا على خصائصه الفنية، وهي خصائص تمثل اتجاهات معيّنة في مرحلة زمنيّة معيّنة، ومن شأنها أن تكشف عن التطوّرات التي مرّ بها أدبُ العرب وشعرهم عبر القرون، ويستبين من خلالها أثر الماضي وتأثيرالحاضر وإرهاصات المستقبل.

وإذا كان من معالم الأدب الجيّد أن يكون أدباً يتعدّى الزمن الذي قيل فيه، . ويتجاوز المكان الذي شهد ولادته، لأنه ذو اتّصَال بالأمّة التي أنتجته، وبتطلعات هذه الأمة ومخاوفها في ماضيها وحاضرها على السواء، فإن شعر ابن القيسراني ينبغي أن يدخل في نطاق هذا النوع من الأدب، لأنّ مادته تتجاوز نطاق الفرد الذي أنشأها، إلى نطاق الأمة التي ينتمي إليها، وهي تطلّعات ومخاوف فيها الكثير الكثير من عناصر الثبات والدوام.

وربّما كانت هذه العوامل جميعاً، ممّا سبق ذكره في السطور السابقة، حافزاً

لي على أن يصدر هذا الكتاب عن ابن القيسراني في طبعة ثانية، بعد أن نفذت طبعته الأولى منذ بضع سنين، وبعد أن تلقيت رسائل من بعض الدول الأوروبيّة والدول العربيّة في شمال إفريقيا تسأل عن الكتاب. ولعلّ مما يريح كاتب هذه السطور، أنه خلال السنوات الأخيرة، قد اتجه كثيرون من الطلبة الجامعيين في الأردن وغيرها إلى دراسة أدب الفترة المرتبطة بالحروب الصليبيّة، إذ كتبوا فيها مجموعة رسائل جامعيّة من مستوى الماجستير والدكتوراه، وبعثوا بذلك الحياة في أدب أُغفلت دراسته لمدة طويلة، واستنطقوا بما كتبوه مصادر قديمة، مطبوعة أو مخطوطة، كان معظمها غير معروف أو غير شائع بين الدارسين.

هذا وأودّ في ختام هذه المقدّمة أن أبيّن بوضوح وجلاء، أنَّ مادة هذا الكتاب، إنما هي حلقة في سلسلة متعددة الحلقات في إطار ما يكتب عن أدب هذه الفترة، وأنّ الحلقات اللاحقة لا بدّ أن تحتوي ما هو جديد وما هو أكثر نفعاً وإفادةً في هذا الميزان، إذ لا بدّ للاحق أن يزيد على ما انتهى إليه السابق، لكونه ينبغي أن يبتدىء من حيث انتهى إليه مَنْ سبقه، فيكون فيما يقدّمه إغناء وإضفاء، سواء أكان ذلك عن طريق الاستدراك والتقويم والتصحيح، أم عن طريق الإضافة المستمدَّة من الاطّلاع على جديدٍ، أو من قدرة متميّزة على الفهم والربط، والتحليل والتعليل.

ومن الله تعالى يُستمدّ كل علمٍ ومعرفة، ونحن بني البشر يصدق فينا دائماً قوله جلّ وعلا: ﴿ومَا أُوتيتُم مَنِ العِلْم إلا قليلاً﴾، وينبغي أن نستجيب دائماً للقول الخالد: ﴿وقَل ربِّ زدني علماً﴾ ولله الحمد ابتداءً وانتهاءً.

محمود أحمد ابراهيم

عمان في ١ من ذي القعدة ١٤٠٨هـ

الموافق ١٦ حزيران ١٩٨٨م